محاضرة: حول المجال العام عند يورغن هابرماس

يعد يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) أحد أبرز الفلاسفة ومنظري النقد الاجتماعي في العصر الحديث، وهو من أهم ممثلي الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية. تركزت أعماله على مفاهيم أساسية في الفلسفة السياسية والاجتماعية، ومن أهمها مفهوم "المجال العام" الذي قدمه في كتابه الشهير "التحول البنيوي للمجال العام" الذي نُشر باللغة الألمانية عام 1962 وتُرجم إلى الإنجليزية عام 1989.

أولاً: مفهوم المجال العام عند هابرماس

تناول هابرماس في كتابه "التحول البنيوي للمجال العام" (The Structural Transformation of the Public Sphere) تطور المجال العام البرجوازي في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ثم التراجع اللاحق الذي أصابه.

ظهر مفهوم الفضاء العام على يد الباحث الألماني يورغن هابرماس الذي صاغ نظرية المجال العام سنة 1962، وقد استخدمه عند تحليله للسلطة السياسية في فرنسا وبريطانيا خلال القرن 18، والمجال العام يتوسط في الواقع بين المجال الخاص الذي قد يركز على الأسرة وشؤون الأفراد الخاصة وبين الدولة الملكية القائمة على السرية، ونتيجة لغياب العلنية جاء هذا الفضاء أو الوسط لتجرى فيه المناقشات الحرة والعلنية. فبداية المجال العام عند هابرماس ارتبط بالمجال الأدبي والثقافي وبهذا المنطق فالشعب مقصى منه لعدم قدرته على مناقشة المسائل الأدبية والفنية والسياسية، فخلال القرن 18 وبعد الثورة الصناعية برزت طبقة برجوازية أصبح لها وزن اجتماعي وسياسي في المجتمع، وقد تشبعت هذه الطبقة واستنارت بأفكار فلاسفة عصر الأنوار 1715-1789 (فولتير، جون جاك روسو، دافيد هيوم، ايمانويل كانط) حيث عرفت هذه المرحلة انتشار الصالونات والمقاهي الأدبية والصحف والدوريات، كما عرفت هذه المرحلة انتشار التعليم وازدياد نسبة الوعي وظهور إنتاج أدبي غزير تمخض عنه بروز طبقة وأفراد متشبعين بالفكر الفلسفي والأدبي، وبعد الثورة الفرنسية (1789-1799) تحول المجال العمومي من أدبي إلى سياسي حيث يرى هابرماس أن " تسييس الحياة الاجتماعية بعد الثورة الفرنسية ساهم في تحول المجال العام البرجوازي إلى سلطة مضادة لسلطة الدولة....

يعّرف هابرماس المجال العام (Public Sphere) بأنه: عالم حياتنا الاجتماعية الذي يمكن من خلاله تشكيل شيء قريب من الرأي العام، وإمكانية الدخول فيه مكفولة لجميع المواطنين." يصفه بأنه: مساحة اجتماعية تتيح لأفراد المجتمع النقاش الجماعي الحر غير المقيَّد، وتكوين رأي عام فيما يتعلق بالمصالح المشتركة." كما أنه المجال الذي يفصل ما بين الدولة والمجتمع، فهو منبثق من المجال الخاص، ومن هنا يجب التفرقة بين المجال الخاص والمجال العام. يقسم هابرماس النظام المجتمعي إلى ثلاثة

أنظمة فرعية: أولا: النظام السياسي المؤسسات السياسية الرسمية، ثانيا: الأنظمة الوظيفية كالتعليم والصحة والخدمات، ثالثا: المجتمع المدني الذي يمثل قاعدة المجال العام.

وتتمثل خصائص المجال العام في:

– الاستقلالية فضاء مستقل عن الأجهزة الإدارية للدولة وعن السيطرة العائلية والقبلية.

– الانفتاح والشمولية: متاح لجميع المواطنين دون تمييز.

– العقلانية والنقدية: يقوم على النقاش المستند إلى العقل والحجة.

– المصلحة العامة يهتم بالقضايا العامة وليس المصالح الخاصة.

– التواصل الحر يتيح التواصل الحر بين الأفراد بعيداً عن هيمنة السلطة.

قام هابرماس بفحص التحول الهيكلي (Structural Transformations) للمجال العام الذي نشأ في أوروبا في القرن الثامن عشر. وقد ركز على ما يسميه "المجال العام البرجوازي" الذي تشكل في المقاهي والصالونات الأدبية ونوادي النقاش في بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

المرحلة الأولى: نشأة المجال العام البرجوازي في القرن الثامن عشر، أما المرحلة الثانية: ازدهاره في القرن التاسع عشر كمساحة للنقاش العقلاني والنقدي، المرحلة الثالثة: تراجعه وانحداره في القرن العشرين مع ظهور وسائل الإعلام الجماهيرية والثقافة الاستهلاكية.

ترتبط نظرية المجال العام عند هابرماس ارتباطاً وثيقاً بنظريته في الفعل التواصلي (Communicative Action)، حيث يرى أن:

* الفعل التواصلي هو أساس المجال العام.

* التواصل الصادق والعقلاني هو شرط لقيام مجال عامفعّال.

* العقلانية التواصلية تقابل العقلانية الأداتية التي تهيمن على المجتمع الحديث.

يضع هابرماس شروطاً للحوار المثالي في المجال العام:

– الحقيقة: صدق الادعاءات حول العالم الموضوعي.

– الصحة المعيارية: الالتزام بالقواعد الأخلاقية.

- الصدق: حقيقة المشاعر والنوايا المعلنة.

- الوضوح: استخدام لغة مفهومة ومشتركة.

❖ **عوامل تراجع وانحدار المجال العام:**

- تجارية وسائل الإعلام: تحول وسائل الإعلام من أدوات للتنوير والنقاش إلى أدوات تجارية.

- سيطرة الدولة: تزايد دور الدولة وتدخلها في المجال العام.

- ثقافة الاستهلاك: انتشار الثقافة الاستهلاكية وتراجع القيم المدنية.

- تحول الرأي العام: من رأي عام نقدي إلى رأي عام مصنوع ومستهلك.

طور هابرماس مفهوم "الديمقراطية التداولية" (Deliberative Democracy) كإطار يمكن من خلاله تفعيل المجال العام في المجتمعات المعاصرة. وهي ديمقراطية قائمة على: التداول (أو التشاور) العقلاني بين المواطنين، بناء التوافق من خلال الحوار، وتقوية المؤسسات الوسيطة بين المواطنين والدولة، ولحل الإشكاليات السياسية المعاصرة، يقترح هابرماس إعادة التفكير في المجال العام من خلال: تفعيل الديمقراطية التداولية، تعزيز أخلاقيات الحوار، تنظيم وسائل الإعلام بما يضمن استقلاليتها، وقد تم توظيف نظرية المجال العام في دراسة: الحركات الاجتماعية والسياسية، تأثير وسائل التواصل الاجتماعي، التحولات الديمقراطية في المجتمعات، ظواهر المقاطعة والاحتجاج المدني.